تمهيد

منذ قامت العبقرية فى الدنيا سعى الفنان إلى الطبيعة فى حب وإعجاب ونشوة وذهول ، فسكر بجمالها ، وانتشى بمحاسنها ، واتخذها مثلاً يحتذيه ، يصوره ويقلده بالأصوات أو بالألوان ، فكان الرسام والنحات والموسيقى والشاعر . وكل منهم عمد إلى الأرض والسماء ، والحيوان والنبات ، والإنسان والماء ، يرسمها بخياله ويصفها بفنه ، فخلف فى متاحف الفن صورة لإبداعه ومثلاً من خلقه .

والشاعر العربى فنان مبدع سار فى ركب هؤلاء العباقرة الإنسانيين فرسم ما رأى وصوّر ما شاهد ووصف ما أحسّ ، فترك فى المتحف الأدبىّ صفحات خالدة على اختلاف العصور ، تقف لمتاحف الرسامين والنحاتين والمصوّرين فى إبداع الخطوط وقوة التقليد والمحاكاة ، ونقل الصوت والحركة والنشاط ، ورسم الحديث واللون والظل ؛ سواء أكان فى رسم الطبيعة أم فى تصوير الإنسان والحيوان ، أم فى وصف الأخلاق والطباع والعادات . فلعله فهم الأدب على أنه وصف كله ، ولعله سار فيه على أنه وصف حسى مادى ، فى مدحه للرجال ، أو هجائه للخصوم ، أو فخره بقوته وشجاعته ، أو رثائه للأحبة الذين يفقدهم ، أوفى نسيبه وتشبيبه بالمرأة والجمال .

فلما عرض النقاد القدماء لهذا الشعر قسموه إلى أبواب فيها المديح والفخر والهجاء والرثاء والنسيب والوصف . ورأوا أن الوصف يغلب عليها جميعاً ويشملها بردائه حتى قال ابن رشيق : « إنّ الشعر إلاّ أقله راجع إلى باب الوصف » . وقد جعلوا الأبواب الخمسة للإنسان تصف أخلاقه وطباعه ومزاياه

ومحاسنه وخلقته وتكوينه ، وخصوا الوصف بالحيوان والنبات والأرض والماء والنار والسماء ، وأدخلوا الخمر فيها على أنها بعض هذه الأجزاء .

وفسروا الوصف فى معاجمهم بأنه الكشف والإظهار ، فإذا قالوا : وصف الثوب الجسم فقد أرادوا أنه نم عليه ولم يستره . فهو فى عرفهم ذكر الشيء بما فيه من الأحوال والهيئات ، وقد نظر النقاد المحدثون إلى ما قيل فى الطبيعة الميتة وفى الطبيعة المتحركة ، فرأوا أن الشعر يكشف عنها ويرسم حالها وهيئتها ، لذلك جمعوا ما كان فى الوصف ، فسموه حيناً بشعر الطبيعة وحيناً بشعر الوصف ، وألفوا فيه بعضاً من الفصول والكتب .

وقد خص القدماء أبواب الوصف بعنايتهم فعرضوها فى مختاراتهم وتحدثوا عما فيها من بلاغة وفصاحة ، وبعض هذه المؤلفات مطبوع ، كتشبيهات ابن أبى عون وديوان المعانى لأبى هلال العسكرى ، ونهاية الأرب للنويرى ، وبعضها مخطوط كالمحب والمحبوب والمشموم والمشروب للسرى الرفاء ، والتحف والهدايا للخالديين ، وقد رجعنا إلى هذا كله ، واعتمدنا عليه ولا سبيل إلى ذكر الصفحات والمراجع القديمة والحديثة عند كل استشهاد فذلك يطول ، وفيه الشعر والنثر ، فوقفنا عند الشعر فحسب لأنه ألزم بالبحث .

ونحن حين نجمع هذه الألواح والصور بعضاً إلى بعض ونقرب بينها نستطيع أن نتبين من خلالها صورة للأرض التى عاش عليها العرب من وهاد وتلول ، وصحارى ورياض ، وأنهار وبرك ، وزهر ونور ، وشجر وثمر ، ورسماً للحيوان الذى كان يدب بينهم ، وللقصور التى كانوا يشيدونها ، والطلول التى كانوا يغادرونها ، ولمجالس الشراب التى كانوا يعقدونها ، والحروب التى كانوا يخوضونها ؛ ونلمح الوجوه والملابس لمختلف الطبقات والأمم التى اختلطوا بها ، وما كانوا يستحبون منها ، وما كان يدور بينهم من حديث فيها ، وما كانوا يفضلون من جو وبيئة ، وما ينظرون من الأفلاك والسماء والسحاب والمطر ، فكأننا نتعرف إلى حياتهم

الاجتماعية كما صورها شعراؤهم على اختلاف العصور والأقطار ، وقد انعكست فى أوصافهم نفسياتهم وحالاتهم من فرح وحزن ، وحب وكره ، ورضا وحقد ، وحرب وسلم .

فقد كانوا يستلهمون من طبيعتهم وزمانهم أوصاف ما تقع عليه أعينهم وتجرى فيه أخيلتهم ، فى البدو والحضر ، فى الحجاز أو فى الشام ، فى العراق أو فى مصر والأندلس ، بل كانوا يختلفون فى ذلك حين تقسو الطبيعة أو تلين ، وتسخو الحياة أو تبخل ، فالراعى غير الأمير ، والمقاتل غير اللاهى ، وساكن الصحراء يختلف عن سكان الأنهار ؛ والحياة فى العصر الجاهلى تختلف عما آلت إليه فى العصر العباسى أو الأندلسى ، فإذا كانت قد تشابهت صور الوصف فى هذه العصور فمردها إلى الحنين أو التقليد ، أو الضعف وقعود العبقرية .

وأغلب الظن أن العربى تأثر بالأمم قبل الإسلام حين اتصل بالفرس أو بالروم قبيل القرن السادس للميلاد ، فقد عاشت قبائلهم فى كنف الغساسنة والمناذرة ، وسافر شعراؤهم إلى هؤلاء وهؤلاء ، فألفوا الغناء الفارسى أو النشيد الرومى ، وانتقل ذلك إلى أقوالهم وأحاديثهم وشعرهم من غير أن تفصح الكتب عن هذا الأثر ، أو يشير التاريخ إلى هذا التفاعل .

فلما انتقل العباسى إلى العراق وتغلغلت الحضارة الفارسية فى حياته وانتقلت إلى شعره ذكر النقاد هذا الأثر وبالغوا فيه ، لأنهم كانوا يشيرون إلى كل مصدر ، ويبحثون عن كل ينبوع ، ويتحدثون عن فضل الأعاجم ، فرأوا أنّ الوصف طبع بطابع الحضارة الجديدة ، وألمّ بتقاليد الفرس .

ولما كان القرن الرابع للهجرة تأثر العباسيون بهذه الصور ودرجوا على حبها ومعالجتها ، فحلق الشعراء فى الوصف وبلغوا ذروة الفن ، وطرقوا الموضوعات فى عمق وشمول ، ورسموا الحياة فى كثير من الإبداع والدقة .

وحين عاش العربى فى الأندلس ظل قروناً يقلد المشرق ، حتى كان القرن

الخامس للهجرة ، فحاول أن يجدد وأن يخرج عن نطاق الأدب القديم، فكانت له صور موفقة وأساليب جديدة ، تقع حيناً من القرن الرابع موقع الشبه والمجاورة .

ولما أطلّ العصر الحاضر غزث الحضارة ديار مصر ، واتصلت الشام بأسباب الغرب فتحرك الوصف نحو الطرافة والجدة ، وبلغ مبلغاً من التوفيق خلال السنين الأخيرة فى الشام ومصر ، يبعث الأمل فى أدب المستقبل .

وسنعرض فى الصفحات التالية فصول هذا التطور ، ونبسط بعض صور الطبيعة الميتة والمتحركة ، فنرى كيف نظر العربى على اختلاف الزمن إلى موضوعات الوصف من حيوان وأرض وسماء وخمر وسلاح وحرب ، فى العصر الجاهلى ثم الأموى ، فالعباسى والأندلسى ، إلى أن نبلغ المعاصرين فنلم فى إيجاز بشعرهم فى الوصف ، نورد الأمثلة حيناً ونختصرها حيناً ، ونحكم عليها أو لها ، وما هى إلا محاولة فى هذا الباب نرجو أن تقع موقع التوفيق، لسعة البحث وتعدد مناحيه ، والله من وراء القصد .

سامى الدهان